٣ ـ إلى أرض النبوة !

[وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز
ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري للسيارات]

للأستاذ علي الطنطاوي

تركنا القراء في « المخفر السعودي » على الحدود . وأشهد أني لم أذق طعم الأنس والاطمئنان منذ فارقت دمشق إلا في هذا المخفر ، ومهما نسيت من المشاهد ، وأضعت من الذكريات ، فلن أنسى تلك الساعة ، ولن تضيع من نفسي ذكراها ، وإنني لأتخيلها الآن ، وقد مر على تلك الزيارة خمس سنين ، ولم يبق في يدي منها إلا ماعلق بذهني ... أتخيل تلك الخيمة الشعرية الشعرية ، الجاثمة على ذلك التل العالي ، تطل على التلال التي لا يحصيها عد ، وقد اتكأت فيها على جنبي ، ونظرت إلى أسفل مني فرأيت السلوك الشائكة ، فعجبت منها سلكة لا يمبأ بها تفرق الأخ عن أخيه — وتجعل الشعب شعبين — ثم مددت بصري حتى ضل في ثنايا السراب المتألق في وهج الظهيرة ؛ ثم بلغ « دمشق » ، دار الأحبة ومثوى الأماني ، فهزني الشوق إليها والفخر بها ، والأسى عليها لما أصابها ... ثم رجعت البصر إلى البادية من حولي ، فسرت في روحي روحها ، فشعرت كأن قد صهرتني شمسها ، فغدوت كأولئك الذين خرجوا منها جنًّا في النهار ، ورهباناً في الليل ، وموتاً للظالمين والمبطلين ، وحياة للشعوب ورحمة للناس ... وتمنيت لو كان اليوم إلى اليرموك أو القادسية طريق ، حتى أسلكه كما سلكه أجدادي الأمجاد ... وهيهات أن يكون للشباب الذي أضاع روح الصحراء إلى مثلها طريق ...

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجيء كل مسلم أسـد

* * *

وأكلنا من طعام الجند وهو الزبد والرز والتمر ، وشربنا من ألبان اللياق وما أدراك من شراب ... وتبادلنا أطيب الحديث فكان بشرهم وحديثهم قرى حلواً كتمرهم ، سائغاً كلبنهم . ثم سألونا عن الطريق الذي نسلكه فأشرنا إلى الدليل ؛ فحدثوه فوجدوه أجهل بالبادية من (الكناني) وأصحابه بلغة العرب ، ووجدوه يضرب بنا على غير هدى ويسير على عشى . فأتمنوا صنيعهم معنا ، فبعثوا واحداً منهم يصحبنا إلى (القريات) يرشدنا ويهدينا ، وكان هذا الواحد فتى حلواً جميلاً ولكنه على حلاوته وجماله أمضى من السيف البائر ، وكان اسمه (سلامة) فتفاءلنا به خيراً . وكان صلى الله عليه وسلم يتفاءل ، وقلت : رافقتنا السلامة إن شاء الله ، والحاج غراب صامت لا ينطق ...

وودعنا القوم الكرام وسرنا نخرق صدر البادية المهولة وأرواحنا معلقة بيد سلامة ، وسلامة يشير إلى السائق ويلقي عليه أوامره : يمين . شمال . اصعد التل . تجنب الرملة . والسائق يسمع ويطيع ، والسيارات تتغلغل بين هذه التلال ، ولبثنا على ذلك إلى العصر ، عصر اليوم الثاني من أيام الرحلة ، فرأينا رملة بيضاء فسيحة لها منظر البحر في سعته وتموجه واستوائه ، تملأ العين جمالاً والقلب من خوف سلوكها فزعاً ، يلوح من ورائها سواد قليل كأنه النخيل أو خيال البنيان . فقال سلامة سلّمه الله : « هذه هي القريات »

والرمال التي رأيناها في البادية على نوعين : رمال منبسطة بيضاء دقيقة كالغبار ، لاطية بالأرض ، يتخللها نبات من نبات الصحراء (وسأصف فيما يأتي من الحديث أنواعاً منها خبرناها) ورمال حمراء حباتها أكبر ، وامتدادها أكثر ، وهي تلال يأخذ بعضها بأعقاب بعض ، تشبهها العين بأمواج البحر ، لو كانت تجمد أمواج البحر ، وإذا أنت تأملتها وجدتها في حركة دائمة لا تستقر حباتها ، وبذلك ينتقل التل العظيم من مكان إلى مكان في الشهر مرة أو الشهرين ، ولقد رأينا في عودتنا مناطق كانت سهلة ما فيها حبة رمل ، فصارت بعدنا آكاما من الرمال

وهذه الرمال آفة السيارة ، وعلتها التي لا دواء لها ، فإنها لينها وتهافتها لا تثبت تحت دواليب السيارة ، فتغوص فيها كما تغوص في الماء ، وتلبث فيها كأنما دفنت وهي في الحياة

* * *

ولقد لقينا من هذه الرملة عناء تقل في وصفه مبالغات الشعراء ... غرقت فيها السيارات ، وما لها لا تغرق وقد قلت لك إنها رملة كالبحر ، أفتمشي سيارة على وجه البحر ؟ ولقد لبثنا إلى الليل نزيح الرمل من حول السيارة ، ونرفعها رفعاً ، ثم ندفعها بعواتقنا دفعاً ، ثم نجرها بالحبال ، حتى إذا قلنا سارت عادت فناصت ، فلم نقطع الرملة حتى تقطعت أعمارنا ، ولم نخرج

منها حتى شهدنا أنه لا إله إلا الله !

* * *

وقريات الملح قرى ست متقاربة أكبرها قرية (كاف) ، ولـكنها لا تحوى على نصف سكان (حلبون) أخس قرى الشام ولا تبلغها كبراً واتساعاً ، وهى فى غور من الأرض ، وكان أول ما استقبلنا منها الحصن ، وهو حصن كبير من الحجر الأبيض المسنون ، علمت أن الأمير نواف بن النورى بن الشعلان هو الذى بناه أيام تسلطه على تلك الديار ، منذ خمس وعشرين سنة ، ولم أجد من استزيده من خبره ... والقريات اليوم إمارة ، وهى مقر الأمير . ومما رأينا فى الحـكومة السعودية أنهم يسمون كل من يلى مدنية مهما صغرت أميراً ، لا فرق فى ذلك بين أمير القريات ، هذه ... وبين أمير المدينة المنورة ...

وكان الأمير يومئذ غائباً فى مكة يشهد الموسم ، يقوم مقامه ابن أخ له ، وهذه العادة فاشية فى الحجاز ، إذا غاب الأمير أناب عنه ولداً له أو قريباً ، وكان نائب الأمير فى قرية أخرى من القرى الست ، فلم نلقه ، ولـكنا لم نعدم من يستقبلنا ويكرمنا ، وغاية الإكرام (كما رأينا) أن ندخل القصر ، وتوقد النار فى زاوية البيت الذى جلسنا فيه ، ويشعل فيها الغضا هـذا الذى يضرب بحره المثل والذى ذكره الشعراء فأكثروا ، وكنوا به عن نجد ، مهوى الأفئدة منهم ، وقد رأيته مراراً فوجدته كثيراً فى البادية وهو كالشمش غير أنه أجل شكلا وأدق ورقاً ، وهو أشد شجر رأيناه فى البادية اخضراراً ، أما جمره فكالفحم الحجرى ولا مبالغة ، وقد عرفه الشاعر حين زعم أنهم (شبوه بين جوانحه وضلوعه) ، أما نحن فعرفناه فى هذا البيت حين أشعلوه وزادوا فى إضرامه حتى بلغ لهيبه السقف ، ثم قربونا منه وأجلسونا إلى جانبه ، فلما (تقهوينا) ونلنا حظنا من الإكرام البالغ ... سألونا سيارة تأتى بالأمير ، ودعينا إلى دار أخلوها لنا ، وكانت دار مفتش الحدود (عبد الرحمن بن زيد) وهى أكبر دار فى القريات وأجلها إلا أنها خالية لا شىء فيها ، ففرشنا فيها ما كنا نحمل من بسط وفرش وإحرامات ولم أبتئس أنا بخلوها ، فقد كان بساطى وإحرامى أحب إلىّ من كل ما يمكن أن يفرشوه فيها . ولما اطمأننا على أمتعتنا وعلى مكان مبيتنا خرجنا نجول فى القرية فإذا هى بيوت من الطين قائمة على (شاطىء) الرملة يحف بها نخل قليل وفيها حقول تزرع فيها بعض الخضر ، وتسق من عين جارية وفيرة تقوم برى قسم كبير من الأراضى لو كان هناك مال وكان هناك أيد عاملة تسعى فى توسيع الأراضى الزراعية وتحسين زراعتها . ويحيط بالبلدة وبساتينها ورملتها صخور أهرامية هائلة رهيبة المنظر تمتد من حولها كأنها سور إلهى ... وحياة هذه القرى من الملح الذى يستخرج من السباخ الـكثيرة القريبة من البلد ، ويصدر إلى حوران وشرق الأردن .

* * *

بتنا فى دار ابن زيد هذا خير مبيت ، وقد جاؤونا بالعشاء من قصر الأمير ، فلما أصبحنا غدونا عليه ، فرأيناه شاباً ذكياً ليس بالمتعلم ولـكن له مشاركة فى بعض علوم الدين ، ويحفظ شيئاً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، تلقاها فى مجالس العلم ، وتلك سنة حسنة استنها الإمام عبد العزيز حفظه الله . فجعل ليله كله للعلم يأتى مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتاباً ، فإذا أتموه شرعوا فى غيره ، وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه ، وقد قلده الأمراء جميعاً فى ذلك ؛ فمن هنا ما يحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات ...

استقبلنا بنفسه على عتبة الباب ببشر وإيناس ، وجلس معنا يحدثنا ونار الغضا تلفح وجوهنا . ولبثنا على ذلك ساعة لم يدع فيها الأمير دقيقة واحدة قَوْلَةَ : قهـوَة . شاهى . شاهى . قهـوَة . يدور علينا بها عبد أسود كأن شفتيه غطاء ووطاء ، وكأن جسمه المحمل ، ثم أديرت علينا المجمرة وفيها البخور ، يخور العود ، فلم ندر ما نصنع بها ؛ ثم وجدنا الأمير يضم عليها طرف كوفيته أو عباءته حتى يتمشق الطيب ثيابه ، ثم يدعها فصنعنا مثله ، وانتحى العبد من إدارة المجمرة ، فرأيت الأمير ينظر إلينا ، فقام الشيخ الرواف واستأذن ، وقمنا معه على أن نجتمع الظهر بالأمير على الغداء ...

فلما خرجنا ، قال الشيخ الرواف : ألم تسمعوا المثل النجدى ؟ قلنا : وما ذاك ؟ قال : « إذا دار العود فلا تعود » . فعلمت سر نظر الأمير إلينا ، وتمنيت لو دخل هذا المثل بلادنا ، حتى عرفه الناس ؛ ثم ذكرت أن عندنا بحمد الله من لا يفهم بالعود ولا بالعصا ولا يخرج من زيارتك ، حتى تخرج غيظاً من جلدك ...

(لها بقايا) على الطنطاوى